الباب الأول

العلاقات الايرانية السورية

obeikandl.com

العلاقات الايرانية السورية من 1979

تعود العلاقات السورية الإيرانية الراهنة إلى عام 1979، وهو العام الذي تأسست فيه الجمهورية الإسلامية في إيران على يد الخميني أما منظر هذه العلاقات، وواضع فلسفتها فهو محمد حسين منتظري مؤسس الحرس الثوري الإيراني وكان محمد منتظري أحد الكوادر التي عملت تحت ظلال الخميني حين كان في منفاه بالعراق، وكان تلميذ نجيب له.

وقبل انتصار الثورة الإيرانية، مثل منتظري الابن همزة الوصل بين الخميني وعدد من القوى السياسية في الساحة العربية، بينها حركة التحرر الوطني الفلسطيني فتح وكانت لدى منتظري رؤية مفادها أن الثورة الإيرانية الوليدة لا يُمكن أن تقف على قدميها إلا بالارتكاز إلى منظومة وثيقة من التحالفات مع كافة القوى التي تشاركها الأهداف الأساسية، وأن هذه التحالفات تُعد جزءاً من الثورة ذاتها وكانت لدى هذا السياسي الشاب جملة يرددها على نحو دائم تقول: ثورة مستمرة لا دولة مستقرة وتحرك منتظري الابن لوضع اللبنات الأولى لعلاقات إيران مع عدد من الدول الموصوفة حينها بالراديكالية في الوطن العربي، بما في ذلك سوريا وليبيا واليمن الجنوبي، فضلا عن حركة فتح وكان يحظى في تحركه بدعم من الخميني وبقية القادة التاريخيين للثورة الإيرانية، مثل

المرشد الحالي آية الله علي خامنئي، والرئيس الأسبق الشيخ هاشمي رفسنجاني.

كان لموقع سوريا الإستراتيجي في الشرق الأوسط إيحاءاته الخاصة في حسابات طهران فتقاطرت الوفود الإيرانية على دمشق طارحة الكثير من التصوّرات الداعية إلى إقامة روابط خاصة ومتقدمة، بعد أسابيع فقط من انتصار الثورة الإيرانية وكانت تلك البداية وفي ذلك الوقت أثير نقاش حول تعريف العلاقة المميزة أو الخاصة التي يُمكن إقامتها بين سوريا وإيران وانطلق قطار العلاقات السورية الإيرانية بسرعة عاتية وفي سبتمبر عام 1980، اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، لتفرض تحدياً غير محسوب على هذه العلاقات.

يومها، كانت العلاقة بين دمشق وبغداد قد عادت لنقطة الصفر، أو قريباً من ذلك، حيث أطاح النائب صدام حسين، بالرئيس أحمد حسن البكر، وقام بعملية تصفية شملت كوادر كبرى فى حزب البعث الحاكم في العراق، بينها الوزيران محمد عايش وعدنان حسين.

تدهورت العلاقات بين القطرين بوتيرة متسارعة وبدت الظروف ضاغطة بشدة على السياسة السورية في الكثير من المحاور والجبهات وصارت الحرب العراقية الإيرانية تلقي بظلها الثقيل والخطر على هذه

السياسة وجاء الإيرانيون إلى دمشق، وفداً بعد آخر، يشرحون تطوّرات الأحداث ومقدماتها، وسياقها السياسي، لكنهم لم يطلبوا دعماً أو عوناً عسكرياً، لإدراكهم حساسية الموقف وخطورته.

لقد فوجئ الإيرانيون بإعلان سوريا نيتها المشاركة في حرب الخليج الثانية، واعتقدوا للحظة أن علاقتهم بها سوف تنهار أو تنكمش، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث وفي عام 1991، صدر إعلان دمشق الذي قضى في أحد بنوده بمرابطة قوات سورية ومصرية في الخليج وما إن تناهى إلى مسامع الإيرانيين نبأ هذا الإعلان حتى استشاطوا غضبا، ونددوا بما حدث، وأرسلوا وفودهم إلى كل حدب وصوب.

بعض هذه الوفود سمع من السوريين قولا بدد قسطا من هواجسه، فما كان منه إلا أن قابلهم بالقول إن الغضب والاعتراض على إعلان دمشق لا يرتبط بالسياسة السورية، بل المصرية.

وعند هذه النقطة انتهت زوبعة إعلان دمشق في شقها المرتبط بالعلاقات الإيرانية السورية، كما أن هذا الإعلان نفسه لم يُعمر سوى برهة من الوقت واعتباراً من مطلع التسعينيات، بدأت العلاقات الإيرانية السورية تتجه نحو مرحلة جديدة، متأثرة بطيف عريض من تحولات البيئة الجيوسياسية الإقليمية والدولية أول هذه التحولات، انهيار الاتحاد

السوفييتي، حيث خسرت سوريا حليفها التاريخي، الذي ارتكزت عليه في مشروعها الأمني والاقتصادي وفي الوقت ذاته، أدى سقوط الاتحاد السوفييتي، إلى تقليص هامش المناورة السياسية أمام إيران، وجعلها أكثر إحساساً بالضغوط الغربية.

ثاني التحولات، تجسد في حرب الخليج الثانية، وما تبعها من انتشار عسكري أمريكي واسع في منطقة الخليج العربي، رأت فيه إيران تهديداً كبيراً لأمنها القومي.

ثالث التحولات، تجسد في الغزو الأمريكي للعراق عام 2003 وقد وضع هذا الحدث كلا من سوريا وإيران على فوهة بركان وكانت الدولتان هدفاً ، وفق ما تقوله الآن المذكرات والوثائق المتداولة وعلى الرغم من أن سوريا وإيران تبنتا طريقين مختلفين للتعامل مع الغزو الأمريكي للعراق، إلا أنهما اشتركتا في الشعور بالخطر المحدق، غير الافتراضي أو بعيد المدى فتسارعت وتيرة التعاون السوري الإيراني، واتسع نطاقه، ليشمل جملة عريضة من القضايا الثنائية والإقليمية.

وفي هذا الإطار برز التعاون العسكري، الفني والتقني بين الدولتين، خاصة على صعيد الصناعات الصاروخية وتشير التقارير الغربية والإسرائيلية المتاحة إلى أن هذا التعاون قد بدأ فعلياً بدعم سوري

للبرامج الإيرانية الناشئة، قبل أن تصبح إيران داعما رئيسيا للتصنيع العسكري السوري عامة، والصاروخي خاصة وارتدى هذا التعاون مدلولا جيوسياسيا، مع الدعم الإيراني السوري المشترك لحزب الله في لبنان، حيث نقلت سوريا عمليا تجربتها الصاروخية للحزب.

الأطماع الإيرانية فى المنطقة العربية

ملامح المشروع الإيراني في المنطقة العربية، ليست غريبة لمن يقرأ التاريخ جيداً، الدولة الصفوية إبان عهد الشاه إسماعيل كانت لها محاولات للسيطرة على منطقة الخليج والعراق أيضاً، لكن الدولة العثمانية حافظت على الهوية السنية لدول المنطقة في تلك الحقبة، فيما تعاونت الدولة الصفوية مع كل من يهدد أمن المنطقة كالبرتغاليين والإنجليز، وكان الشاه إسماعيل يردد آنذاك سأمدكم بما تحتاجون يقول الدكتور أنور عشقي أن المشروع الإيراني واضح في رؤيته الهادفة إلى بسط نفوذه على الخليج العربي، وتحديداً منذ الثورة الإيرانية في نهاية السبعينات، فالمشروع الفارسي دعمته أمريكا إبان وجود الشاه، ليكون الحاجز الأول أمام الاتحاد السوفياتي آنذاك، وكان للشاه حينها مشروع توسعي نحو دول الخليج، وهو ما رفضته الدول الكبرى في حينه، ومنعوه فلم يمتنع، إذ كانوا يخشون من سيطرته على نفط المنطقة، وما لبث الأمريكيون أن اتجهوا إلى إبعاد الشاه ودعم الجماعات الإسلامية،

ووقتها لم يكونوا يفرقون بين الشيعة والسنة، ووجدت حكومة الرئيس كارتر أن وجود دولة إسلامية في آسيا إلى جانب أفغانستان سيصيب الاتحاد السوفياتي في مقتل، وهو ما يتحقق بحسب رأيهم في إيران، لكن كارتر فوجئ بطموحاتهم التي لا تنسجم معه.

يرضي أن إيران توثق علاقاتها الدولية مع كل الدول الكبرى في سبيل تحقيق أهدافها في المنطقة، مشيراً إلى أن هذا النهج بدأ منذ تأسيس الدولة الصفوية واستمر حتى الآن، ولا فرق بين الإصلاحي والمتشدد في القيادة الإيرانية تجاه المشروع المخطط له، واكتساب دور إقليمي ودولي إذ انها ترغب في مشاركة الدول العظمى في تحديد السياسة الإقليمية في المنطقة، عبر وسائل عدة، كالادعاء أن إيران تسعى إلى الوقوف أمام مشروع غربي ساع إلى السيطرة على المنطقة والإضرار بهويتها الإسلامية، وللأسف بعض المتابعين من السُنّة صدّق هذه الادعاءات0

ويقول الدكتور أنور عشقي: إيران جارة، نشترك معها في بعض الأمور، وكنا نتمنى أن تكون جزءاً فاعلاً في الأمة الإسلامية، لكن مشروعها يمنعها من ذلك، إذ لديها رغبة في إعادة المجد الفارسي، وطموحاتها أكبر من قدراتها، وهــذا ما يسبب لها أزمة سياسية.

يصعب عليها أن تكون دولة عظمى بسبب قدراتها المحدودة، وفي إمكانها فقط أن تكون دولة فاعلة على مستوى المنطقة، شريطة أن تمد يدها إلى دول الجوار، لكنها حرصت على تصدير الثورة بهدف السيطرة على المنابر الدينية العربية، بتوجيهات الخميني آنذاك وكانت بريطانيا منحت ايران الكثير من المدن العربية على شواطئها، وتحديداً عام 1929، وهو ما سمح للإيرانيين بتغيير هوية الكثير من المدن العربية في إيران.

إيران دخلت في حرب مع العراق لثمانية أعوام، وخسرت فيها الكثير رغم المال والجيوش والدعم من بعض الدول العربية التي لا تحب صدام حسين، ورغم دعمها الشعارات العقائدية، لكن الشعب العراقي العربي العظيم نجح في التصدي لأهداف إيران التوسعية، التي تناست أن ثورتها متخّلفة، ولا يمكنها أن تعيش في العصر الحالي، ولا تملك رؤية حديثة، في ظل ترديدها لشعارات دينية غير صحيحة .

سوريا والمشروع الصفوي الإيراني

منذ قيام ثورة إيران 1979م، كان على رأس أولويَّاتها مبدأ تصدير الثورة الإسلامية إلى جميع الدول المجاورة لها أوَّلاً؛ لأن الخطر الذي يواجِههم من الحُكَّام الوهَّابيين وذَوِي الأصول السُّنية على حدِّ تعبيرهم

أكبر بكثيرٍ من الخطر الذي يواجههم من الشرق والغرب؛ يقول صباح الموسوي رئيس المكتب السياسي لحزب النهضة العربي الأحوازي ومع انتصار ثورة الشعب الإيرانيَّ ضد نظام الحُكم البهلوي، وقيام ما يسمَّى بالنظام الجمهوري الإسلامي، تبنَّى قادة هذا النظام مشروع تصدير الثورة لإسقاط الأنظمة السُّنية؛ لهذا تَمَّ إنشاء العديد من الأحزاب والحركات السياسية الشيعيَّة في عددٍ من البلدان الإسلاميَّة؛ بُغية خلخلة وضْعها الأمني، وتهيئة الظروف لإسقاط أنْظِمتها، وتحقيق حُلم إعادة إمبراطورية فارس تحت عباءة التشيُّع وتَمَّ بالفعل وضْع مُخَططات لتحقيق هذا الغرض؛ من أجل زيادة نفوذ إيران الخارجي وقد حدَّدوا ثلاثة أُسس؛ لتثبيت أركان الدولة:

الأول: القوة التي تَملكها السلطة الحاكمة.

الثاني: العلم والمعرفة عند العلماء والباحثين.

الثالث: الاقتصاد المتمركز في أيدي أصحاب رؤوس الأموال.

وتحقيق ذلك يتم في اتجاهين متضادين: اتجاه إضعاف هذه الأُسس في هذه الدول، مقابل تقويتها في صالحهم.

ونجد وسائل تنفيذ ذلك تتنوَّع بين طرق اجتماعيَّة وثقافيَّة، ودينيَّة وسياسيَّة، واقتصادية وإعلاميَّة، وغير ذلك، بل وعسكريَّة واستخباراتيَّة وجاسوسيَّة، وعمليَّات سريَّة، وما أشْبَه ذلك، ووسائلهم لتنفيذ مُخططاتهم متنوعة، حتى قال عنها الخبير بهم عبدالعزيز شاه ولي الله الدهلوي بأنها: كثيرة جدًّا، لا تدري اليهود بعُشرها.

وفي النهاية هو مشروع صفوي إيراني رافضي، يمتدُّ من إيران فالخليج، فالعراق، فسوريا ولبنان وفلسطين، ولا تبعد الدول المحيطة بهذا الهلال عن المُخطط، طالَما كانت تنتسب إلى الإسلام السُّني من جهة، ومن جهة أخرى، فهي تمثِّل عُمقًا إستراتيجيًّا يَحفظ لهم هذا الهلال فلا جَرَمَ أن تُصبح لبنان وهي تقع في الطرف الغربي لهذا الهلال، وفي وقتٍ مُبكر جدًّا حتى قبل قيام الثورة مرتعًا للوجود الإيراني، بَدءًا من تأسيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان 1969م، ومرورًا بحركة أمل الشيعيَّة 1973م، إلى حزب الله، الذي يشكِّل ذراع إيران في لبنان إلى الآن، بل يشكِّل أكثر من ذلك؛ يقول فخر روحاني سفير إيران السابق في لبنان في مقابلة مع صحيفة إطلاعات الإيرانيَّة لبنان يُشبه الآن إيران عام 1977م، ولو نُراقب ونعمل بدقة وصبْرٍ، فإنه إن شاء الله سيجيء إلى أحضاننا، وعندما يأتي لبنان إلى أحضان الجمهورية الإسلاميَّة، فسوف يتَّبعه الباقون.

وفي تصريح آخر لصحيفة النهار اللبنانية، قال: لبنان يشكِّل خير أملٍ لتصدير الثورة الإسلامية أمَّا حزب الله، فيقول إبراهيم أمين أحد قادة الحزب: نحن لا نقول: إننا جزءٌ من إيران، نحن إيران في لبنان ومما جاء في البيان التأسيسي لحزب الله، فى شهر فبراير عام 1985م أنه: يَلتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة، تتجسَّد في ولاية الفقيه، وفي الخميني، كما أنَّ حسن نصر الله الأمين الحالي لحزب الله يُعَدُّ الوكيل الشرعي للخميني في لبنان ، بل إنَّ جميع تحرُّكات حزب الله محكومة بالمصالح الإيرانية فقط، وفي ذلك يقول حسين شريعة مداري أحد كبار مساعدي خامنئي: إنَّ حزب الله لا يُقاتل من أجل السُّجناء، أو مزارع شِبْعا، أو حتى القضايا العربية أيًّا كانت، وإنما من أجْل إيران.

ومن أجل ذلك عَمَدت إيران أثناء الوجود السوري في لبنان إلى جعْل حزب الله اللاعب الرئيسي في منطقة الجنوب، وهو ما صرَّح به الشيخ إبراهيم المصري، نائب أمير الجماعة الإسلامية في لبنان والهدف من ذلك،كشَفه صبحي الطفيلي، الأمين السابق لحزب الله؛ حيث قال: ما يؤلِمني أنَّ المقاومة تَقِف الآن حارس حدود للمستوطنات الإسرائيليَّة، ومَن يحاول القيام بأيِّ عمل ضد الإسرائيليين، يُلقون القبض عليه، ويُسام أنواع التعذيب في السجون وسوريا لَم تَغِب أبدًا عن المشهد، فمنذ وفاة عبدالناصر احْتَدَم الخلاف بين سوريا والعراق، ومِن ثَمَّ أقامَت

سوريا تحالُفات ومصالح سياسية واقتصادية مع إيران؛ لتطويق العراق، وتحجيم قُدراته السياسية، ومن جهة أخرى فإن الحضور الإيراني في لبنان يستتبع توطيد العلاقات مع إيران؛ حيث إن سوريا تنظر إلى لبنان باعتبارها شأْنًا محليًّا، وبعد الثورة الإيرانية تحوَّلت علاقات المصالح إلى تحالُف إستراتيجي وثيقٍ قائم على التوازنات الإقليمية، بدأتْه سوريا بتأييد إيران، والوقوف إلى جانبها في حربها ضد العراق وإن تَخَلَّلها خلال فترة حُكم حافظ الأسد بعضُ التضارب في المصالح والصراع على النفوذ، ووَصَلت الذِّروة خلال ما سُمِّي حرب الأشقاء في لبنان،والتي تَقاتَل فيها الفصيلان الشيعيان: حركة أمل المؤيَّدة من سوريا، وحزب الله المؤيَّد من إيران؛ حيث إنَّ ظهور حزب الله كان إيذانًا بخروج الشأن اللبناني من الهيمنة السورية المطلقة إلى الهيمنة السورية النسبيَّة بسبب النفوذ الإيراني، وطوال فترة الثمانينيات كانت صورة التحالُف الإيراني السوري تبدو كتحالُف بحكم الأمر الواقع، في حين شرَع كلُّ طرفٍ في تنويع علاقاته الإقليميَّة.

كان القاسم الأكبر بين دمشق وطهران متمثلاً في الاتفاق على إبقاء المقاومة اللبنانيَّة وسلاحها كورقة ردْعٍ ضد إسرائيل، ولكنَّ أدْوَار كلٍّ من طرَفي التحالف في لبنان بدأَت تتعدَّل لمصلحة إيران التي صارَت شريكًا فعليًّا لدمشق هناك وفي التسعينيات وبعد حرب الخليج الثانية، ارتفَع

الحضور الإقليمي لإيران، وحصَل بعدها اختلاف؛ نتيجة انخراط سوريا في عملية السلام مع إسرائيل، وكانت إيران تُعارِض ذلك، ولَم تُبدِ له أيَّ ترحيب، كما تراجَع الحضور السوري بشدَّة في لبنان في صالح إيران، ولَم تَعُد سوريا اللاعب الوحيد فيه، ولا سيَّما بعد تدخُّل دول أخرى، مثل: السعودية، وأصبَحَت سوريا بالنسبة لإيران طرفًا أساسيًّا في الصراع العربي- الإسرائيلي، مع إبراز دعم إيران المعنوي والسياسي والاقتصادي في مواجهة إسرائيل، وبهذا استمرَّت سوريا كشَريك أساسي لإيران في الشرق الأوسط، رغم التراجُع النسبي لأهميَّتها لدى السياسة الخارجية الإيرانيَّة.

وفي الألفيَّة الجديدة، تراجَعت المصالح المشتركة بين سوريا وإيران، وازدادَت الهُوَّة اتساعاً، ابتداءً من الاحتلال الأمريكي لأفغانستان، وتَعاون طهران مع القوات الأمريكية لوجستيًّا ومعلوماتيًّا؛ ليجعل إيران شريكًا معترفًا به أمريكيًّا؛ لتقرير مستقبل أفغانستان، وهو ما رسَّخ دور إيران الإقليمي، ودون تأثير إيجابي يُذكر لصالح سوريا، ثم جاء احتلال العراق 2003 ليَقلِب التوازنات في المنطقة رأسًا على عقب، وليُبرز تناقضات حتى في التحالف الإيراني - السوري.

احتلَّت القوات الأمريكية العراق عسكريًّا، وتحكَّمت إيران عبر الحلفاء في بغداد بمقادير السياسة العراقية لأوَّل مرة في التاريخ الحديث، فبعد

سقوط صدام حسين، وسقوط العراق في المستنقع الأمريكي - الإيراني، بدا الأمر وكأن سوريا قد استنفدَت غرَضها من علاقتها مع إيران بانتهاء نظام صدام حسين، وعبَّر عن ذلك عبدالحليم خدام النائب السابق للرئيس السوري بشار الأسد، وذلك بعد أن قطَع الصِّلة مع النظام القائم، ودعا للانقلاب عليه بقوله: في الماضي كان هناك تحالف إستراتيجي، وكان لسوريا مصالح ولإيران مصالح، وكانت نقطة الالتقاء الأساسية لهذا التحالف صدام حسين، لكن الأمور تحوَّلت بعد ذلك نتيجة غياب نقطة الالتقاء الأساسية، وضَعْف سوريا التي لَم يَعُد لَدَيها أيُّ إستراتيجية.

وهكذا تراجَع الدور السوري الإستراتيجي في المنطقة، وازْدَاد الدور الإيراني، ففي الوقت الذي تعرَّضت فيه دمشق لضغط أمريكي كبير في مسألة العراق بزعم أنها تفتح حدودَها لعمليات المقاومة ضد الاحتلال، كانتْ إيران بمنأًى عن الانتقاد؛ لأن حُكام بغداد الجُدد حَرَصوا على البقاء في مربَّع المصالح الأمريكية الإيرانية، وبهذا استثمرَت إيران الفرصة السانحة في العراق - بالإضافة إلى أدوات سياستها الخارجية التقليدية، مثل: التحالف مع النظام السياسي في سوريا وحزب الله في لبنان لفرْض نفوذ إقليمي غير مسبوق يمتدُّ من حدودها الغربية، مرورًا بالعراق وسوريا وجنوب لبنان، ليصل إلى الجليل الأعلى.

وهكذا ولأوَّل مرَّة في تاريخ التحالف الإيراني - السوري، يخرج أحد الطرفين بمكسبٍ إستراتيجي ، في حين يخرج الطرف الآخر بخسارة إستراتيجية صافية، ولَم تتوقَّف الخسائر السورية عند هذا الحد فقط، بل أظْهَرَت الأحداث في لبنان تهديدات مُبْطَنة لدور سوريا الإقليمي؛ بسبب صدور القرار الدولي 1559 الذي يُطالب سوريا بسحْب قوَّاتها من لبنان، وبنزع سلاح الميليشيَّات المسلحة من هناك، وفي حين اقتَرَبت التهديدات من سوريا أكثر، فقد كانت إيران تتعامَل باسترخاء مع القرار الجديد لعدة أسباب الأول: أنَّ متاخمتها لكلٍّ من أفغانستان والعراق، ودورها الإقليمي فيهما، وضَع أوراقًا ممتازة للضغط بيدها.

الثاني: أنَّ حليفها اللبناني حزب الله قد فرَض حضوره الطاغي على الساحة السياسية والعسكرية، ونزْع سلاحه رغم القرار بدا أمرًا مستبعدًا.

والأمر الثالث: أنَّ التوافق الإيراني - السعودي في لبنان عبر الحلفاء المحليين، لَم يَعُد يرتبط بالضرورة بالدور السوري كَحَكَم بين الفُرقاء.

والسبب الرابع: يتعلَّق بحليف إيران الذي يمثِّل الشطر الأعظم لطائفة لبنانية كبرى، في حين لا تَملك سوريا مثل هذا الحليف هناك، وهو الشرط الأساس للاستمرار في اللعبة السياسية.

وفي بداية عام 2005 جاء الانفجار اللبناني الكبير،المتمثِّل في اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، ليَقلِب الوضع في لبنان وسوريا رأسًا على عقب، وتوالَت الضغوط الدولية والعربية على سوريا؛ من أجْل سحْب قوَّاتها من لبنان، وهو ما حدَث بالفعل، ومثَّل الانسحاب السوري من لبنان أقصى مُنحدر يَبلغه النفوذ السوري هناك منذ عقود، أمَّا إيران فلم يتأثَّر وجودها ونفوذها في لبنان بالانسحاب السوري؛ إذ إن حليفها الأساسي في لبنان حزب الله، كان في موقع الطرف العسكري الأول، ويرتبط عضويًّا ومرجعيًّا بعلاقات تحالُف معها ليستْ محكومة بسقف السياسة، بل بسَقْف أعلى بكثيرٍ هو سقف القيادة الدينية مُمثلة في المرشد الأعلى للثورة علي خامنئي، وبالعكس مما يبدو في الظاهر، كان الانسحاب السوري مفيداً لإيران من زاوية أن الجيش السوري الموجود في لبنان كان الطرف الوحيد القادر نظريًّا على نزْع سلاح حزب الله في حال حدوث توافُق إقليمي ودولي حول هذا الموضوع0

فعلى مدار هذا التاريخ نجد أنَّ اللاعب الأساسي في العلاقات بين البلدين هو إيران، وأن سوريا لا تمثِّل أكثر من حليف إستراتيجي يجب أن يكون بجانبك طوال الوقت؛ حيث لا تستطيع أن تستغني عنه، بل إنَّ الهدف أن يَصير طوع يديك على غرار حزب الله في لبنان، والآن وبعد الثورات العربيَّة والثورة السورية، وصولاً إلى هذه المرحلة الحَرِجة

فيها، هل تستطيع إيران أن تتخلَّى عن حليفها السوري المتمثِّل في نظامه العَلَوي؟0

ومن تَحالُفات مصالح سياسيَّة واقتصاديَّة مع إيران، إلى تحالُفٍ إستراتيجي وَثِيق قائم على التَّوازُنات الإقليميَّة، إلى ارتِفاع الحضور الإقليمي لإيران والتَّراجُع النسبي لسوريا لدى السياسة الخارجيَّة الإيرانيَّة.

وازدادَتِ الهوَّة اتِّساعًا، ابتِداءً من الاحتِلال الأمريكيِّ لأفغانستان، ثم احتلال العراق 2003 ليقلب التَّوازُنات في المنطقة رأسًا على عَقِبٍ، وليبرز تَناقُضات حتى في التَّحالُف الإيراني - السوري، فبعد سُقوط صدَّام حسين، وسُقوط العراق في المستنقَع الأمريكي - الإيراني، بدَا الأمر وكأنَّ سوريا قد استَنفَدتْ غرضها من علاقتها مع إيران بانتِهاء نِظام صدَّام حسين، وعبَّر عن ذلك عبدالحليم خدام النائب السابق للرئيس السوري بشار الأسد - وذلك بعد أنْ قطَع الصِّلة مع النِّظام القائم، ودعا للانقِلاب عليه - بقوله: في الماضي كان هُناك تحالفٌ إستراتيجيٌّ، وكان لسوريا مَصالِحُ ولإيران مَصالِحُ، وكانت نُقطة الالتِقاء الأساسيَّة لهذا التحالُف صدَّام حسين، لكنَّ الأمور تحوَّلت بعدَ ذلك نتيجةَ غيابِ نُقطةِ الالتِقاء الأساسيَّة، وضعْف سوريا التي لم يَعُدْ لديها أيُّ إستراتيجيَّة، وهكذا تَراجَعَ الدَّوْرُ السوري الإستراتيجيُّ بالمنطقة، وفي المقابل تَزايَد

الدَّوْرُ الإيراني، مُرورًا بعام 2005 والانفجار اللبناني الكبير والمتمثِّل في اغتِيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، فتَزداد الأمورُ تعقيدًا لسوريا، ثم سحب قوَّاتها من لبنان، والذي مثَّل أقصى مُنحَدرٍ يبلغه النُّفوذ السوري هناك منذُ عُقودٍ، وعلى الجانب الآخَر كان الانسِحاب السوري مفيدًا لإيران من زاوية أنَّ الجيش السوري الموجود في لبنان كان الطَّرَفَ الوحيد القادر - نظريًّا - على نزْع سِلاح حزب الله في حال حُدوث تَوافُقٍ إقليمي ودولي حول هذا الموضوع.

وإذا كان الأمر في النهاية يتعلَّق بمشروعٍ صفوي إيراني رافضي يمتدُّ من إيران فالخليج فالعراق فسوريا ولبنان وفلسطين، فإنَّه مع وُصول الرئيس محمود أحمدي نجاد للسُّلطة تطوَّر هذا المشروع، مع الإعلان عن السِّياسات العامَّة للخطَّة التنمويَّة الخامسة، وقد تَمَّ إعلان هذه السِّياسات العامَّة ضِمنَ إطار مِيثاق أفق العشرين عامًا (الأفق العشريني) وبمحوريَّة التقدُّم والعدالة، وتتضمَّن السياسات العامَّة للخطَّة التنمويَّة الخامسة 45 بندًا تتوزَّع على فُصول: الشُّؤون الثقافيَّة، الشُّؤون العلميَّة والتقنيَّة، الشُّؤون الاجتماعيَّة، الشُّؤون الاقتصاديَّة، الشُّؤون السياسيَّة، الشُّؤون الدِّفاعيَّة والأمنيَّة.

وهذه الخطَّة استَهدفَتْ أنْ تكون إيران بِحُلول عام 2025 في المركز الأوَّل اقتصاديًّا وعلميًّا وتقنيًّا على الصعيد الإقليمي، وتَمَّ تحديدُ مفهوم

هذا الإقليم بأنَّه منطقة جنوب غرب آسيا، التي تشمَلُ كلاً من آسيا الوسطى والقوقاز، والشرق الأوسط ودول الجواروعندما ناقشَت صحيفة كيهان الناطقة باسم مرشد الثورة الإيرانيَّة الخطَّة المذكورة من خِلال مقالةٍ نشرَتْها، أشارَتْ إلى أنَّ الأولويَّة الأولى لإيران في تلك المنطقة هي للخليج الذي وصفَتْه بالفارسي لأسبابٍ تتعلَّق بالنِّفط، وبالموقع الإستراتيجي ، وبأنَّ أغلبيَّة سكَّان الدول المطلَّة عليه تتحدَّث بالفارسيَّة ومذهبها شِيعي، واعتبرت أنَّ هذا الأمر من شأنه أنْ يُعمِّق من نُفوذ إيران في المنطقة، خاصَّة أنَّ نجاح نموذج الديمقراطيَّة الدينيَّة كنموذجٍ محلي ودِيني في العِراق سيكون مُبشِّرًا بنُفوذٍ مَعنوي مُتَزايِد لإيران في هذا النِّظام.

أمَّا فيما يخصُّ الشرق الأوسط ، فقد جعلَتْه يأتي في الأولويَّة الثانية في إطار منطقة جنوب غرب آسيا؛ بسبب سياسة التوسُّع الصِّهيَوْنيَّة، وتهديد مَصالح إيران؛ حيث يتعارَضُ هنا المشروعُ الصَّفوي مع المشروع الصِّهيَوْني اليهودي الأمريكي في المطامع النِّفطيَّة والإستراتيجيَّة فى الخليج، وكذلك بسبب وُجود الحزام الذهبي لإيران والعراق وسوريا ولبنان، وهو في الواقع نوعٌ من الائتِلاف المذهبي السياسي والاقتصادي والإستراتيجي، حيث يتعارَضُ هنا المشروع الصَّفوي مع المشروع الصِّهيَوْني اليهودي، بل يتعارضان، ولأنَّ دعْم

إيران للبنان وفلسطين يزيدُ من نُفوذ إيران في المنطقة، وأخيراً لأنَّ قَضايا الإرهاب والتسلح أدَّت إلى احتِدام التنافُس الإقليمي مثْل هذا التفوُّق المطلوب لإيران بعدَ خمسة عشر عاماً من الآن حسَب الوثيقة، والمؤسس على قاعدةٍ قوميَّة مذهبيَّة وفْق مقالة كيهان؛ يعني: أنْ تشتبك إيران مع الوطن العربي عبْر دائرتين أساسيَّتين: دائرة الخليج، ودائرة الشرق الأوسط.

والآن وبعد الثورات العربيَّة، فلا بُدَّ من تغيُّر إستراتيجي في التعامُل مع الدول العربيَّة، بغضِّ النظَر عن كَوْنِ التعامُل الإيراني مع الثورات قد يبدو مُتَناقضًا أم لا، لا سيَّما مصر، التي إذا ما قُدِّر لها أنْ تعودَ إلى موضع الصَّدارة والرِّيادة في قيادة الدول العربيَّة، فإنَّ ذلك ولا شكَّ يُمثِّل تهديدًا قويًّا للمشروع الإيراني، وأمَّا الثورة السوريَّة فتتمثَّل خُطورتها في كَوْنِها تقَع في عُمق إقليم الشرق الأوسط، أو عُمق الحزام الذهبي على حدِّ تعبيرهم.

ولم يكن يضرُّ النظام المستبد العلوي البعثي الأسدي؛ إذ هو بِمَثابة ألعوبة في أيدي إيران، وأمَّا إذا ما تمَّت إزالة هذا النِّظام الموالي، فالخوف من صُعود نظامٍ ليس فقط مُعاديًا للمشروع الإيراني، بل يكون هذا النظام سنيًّا، فنجدُ مخاوف إيرانيَّة من الثورات العربيَّة خاصَّة السوريَّة هنا تُماثِل المخاوف الإسرائيليَّة من هذه الثورات.

ونظَرًا لتعارض المصالح الدوليَّة، ووجود مُؤثِّرات كثيرة في الأرض السوريَّة، فإيران تُمثِّل نوعاً من التوازن وسط هذه العلاقات، أو تُمثِّل متغيراً رئيساً فيها؛ نظراً لعلاقاتها القويَّة بروسيا والصين والهند،وبتركيا وأفغانستان وباكستان وجمهوريَّات وسط آسيا من ناحية، وفي الناحية الأخرى يَقِفُ المؤثِّر الأمريكي، وتقَعُ سوريا في وسط هذا الصِّراع الدولي، الذي سوف يستفيدُ منه النظام السوري بأقصى ما يُمكِنه لإفشال الثورة، والإبقاء على نفسه، والمحافظة على قوَّته الراهنة لاسيَّما وأنَّ هذه الدول جميعًا بالرغم من علاقاتها القويَّة بأمريكا، فإنَّه قد مَضَى عهدُ دولة القُطب الواحد، والهيمنة الأمريكيَّة، فنجد هذه الدول جميعًا تقومُ بدور التوظيف المُتَبادَل لجميع القضايا الدوليَّة؛ بحيث يصبُّ في مصلحتها أولاً، أو تُحقِّق من ورائه مَكاسِبَها الخاصَّة0

ومن هنا نستطيعُ أنْ نفهَمَ تحرُّكات إيران الإقليميَّة والدوليَّة، كما نفهَمُ التحرُّكات الإسرائيليَّة اليهوديَّة، تماماً كما نفهَمُ التحرُّكات الأمريكيَّة، مع التحرُّكات الأوروبيَّة ، فكلٌّ منهم لدَيْه مشروعٌ توسُّعي، إمَّا على نِطاقٍ إقليمي أو على نِطاقٍ دولي.

ونستطيعُ أنْ نفهم التدخُّل السافر الفاجر من إيران حزب الله، ومن حزب الله إيران، والحرس الثوري الإيراني، والجيش الإيراني،

والميليشيات الإيرانيَّة، والإمدادات العسكريَّة واللوجستيَّة والأمنيَّة لتأييد النظام السوري، وقمْع الثورة السوريَّة.

والآنَ يستطيعُ النظام السوري اللعبَ على تقوية وَضْعِه أمام إيران، وإظهار مَكانته الرئيسة في العلاقات بينهما، وأنها ليست من طَرَفٍ واحدٍ كما آلَتْ إليه في مَطلَع الألفيَّة ومُنتَصَفِها، فهي علاقةٌ تَقُوم على مَصالِح إستراتيجيَّة قويَّة، لا يستَغنِي عنها الطَّرفان، والمتوقَّع أنْ تخضَعَ إيران لهذا التصوُّر، فهي بالفعل لا تستطيعُ الاستغناءَ عن سوريا في مشروعها الإقليمي، وكما نقَلت الواشنطن بوست عن منى يعقوبيان وهي خبيرةٌ سابقة في شُؤون الشرق الأوسط لدى قِسم المعلومات التابع لوزارة الخارجيَّة الأمريكية قولها: إنَّ سوريا تُعَدُّ أهم بوَّابةٍ للعالم العربي بالنسبة لإيران، وخط مُواجَهة مع إسرائيل وإذا ما خَسِرَ الإيرانيُّون النِّظام السوري، فإنَّ ذلك سيُشكِّل نكسةً كبيرة لطهران، فإيران في أشدِّ الحاجة اليومَ إلى سوريا، خاصَّة بعد هذه الثورات العربيَّة، التي كانت أنظِمَتُها في تَحالُفٍ قويٍّ مع الولايات المتحدة الأمريكيَّة، ومهما يكنْ من أمرٍ فلا بُدَّ من الأخْذ في الاعتِبار أنَّ النَّظرة الإيرانيَّة على عكس النظرة السوريَّة ليست بناءً على المصالح لكن على الاحتواء التام المطلق، بحيث يصبح التدخل الإيراني في سوريا كما هو في لبنان، وهو ما لم يتمَّ لها بعدُ.

أهداف ودوافع إيران فى سوريا

لا شك أن الحربَ الأهلية في سوريا بين الجيش السوري الحرِّ ونظام بشار الأسد تخطَّت الدائرة العربية والإقليمية إلى المحيط الدولي، فكافة القوى العربية والدولية تحاول البحث عن حلٍّ لتلك الأزمة التي راح ضحيتَها آلافُ السوريين الأبرياء دون ذنب، هذه الحلول تتراوح بين مطالبَ بتسليح المعارضة، أو الضغط على بشار الأسد، والبعض طالَبَ بتشكيل قوات عربية تتولى مهمة تحرير سوريا من قبضة الأسد وتعقيدات الأزمة السورية ترجع إلى عددٍ من العوامل، أبرزها: التدخل الإقليمي الصارخ في الشأن السوري، والدعم الملحوظ الذي يلقاه الأسد من إيران، وروسيا على وجه التحديد، مما يعني أن دمشق تحولت لساحةِ صراع بين القوى الدولية،التي تحاول كلٌّ منها تحقيق مصالحها؛ وَفْقًا لاعتبارات ومحددات سياسية وطائفية وإستراتيجية وقد نشرت مجلة فورين بوليسي الأمريكية مؤخرًا تقريرًا بعنوان ماذا تفعل إيران في سوريا؟،تناوَل الدورَ الإيراني في المشكلة السورية، ومحدداته، ومظاهره وأهدافه.

تُخفي التصريحاتُ الإيرانية رغبةً في التغلغل في التفاوض مع نظام الأسد؛ حتى تحافظ على نفوذها في سوريا بعد رحيله،لاسيما أن تصريحات مسؤوليها تبعث برسالة إلى الغرب، مفادها: أن أي مبادرة

لحل الأزمة السورية لا بد أن تمر عن طريق طهران، باعتبارها تملك أوراقَ اللعبة السياسية في سوريا، وأن أي تجاهل لدور إيران فيها سيؤدي إلى فشل تلك المبادرات.

وفي حين تنفي وزارة الخارجية الإيرانية أيَّ دور عسكري لإيران في سوريا، تؤكد الوقائع على الأرض أن قوة القدس هي المكلَّفة بتمثيل دور إيران هناك، وأنها سوف تلعب دورًا في الفترة الانتقالية التي تشهدها سوريا بعد سقوط نظام الأسد، وهذا التناقض يعكس رغبة الخارجية التي عرَضت التوسُّط بين بشار والمعارضة في الاشتراك في أي مبادرة تفاوض مع الأسد، لكن يبدو أنهم يريدون أن يتولَّى فيلقُ القدس تلك المهمة.

إن تورُّطَ قوات الحرس الثوري الإيراني في الشأن السوري يشير إلى رغبة طهران في الحفاظ على بقاء نظام الأسد بأي طريقة كانت، بالرغم من السمعة السيئة لتلك القوات، خاصة فيلق القدس، الذي اتَّهمتْه دوائرُ عربية وغربية قبل ذلك بالقيام بعمليات مشبوهة، وتصدير الفكر الشيعي في العراق بعد سقوط صدام حسين، كما تورط فيلق القدس في قمع الحركات الكردية الانفصالية في إيران بعد الثورة الإيرانية، وإخماد المُظاهرات المناوئة للنظام الإيراني عامي 2009 و2010.

المؤامرة على سوريا

المؤامرة بمعناها التّاريخي الموضوعي موجودة عبر تّاريخ البشر كله وتعني تخطيط الدّول للسيطرة الكاملة أو الجزئية على دول أخرى فصعود وهبوط كل الإمبراطوريات التي عرفها التّاريخ البشري كان نتيجة عوامل ضعف داخلية،وترصّد الجوار أو فريق معارض من داخل الإمبراطورية للّحظة المناسبة للفوز بالمغانم والسّلطة استمرار قوة وسيطرة دولة يتعلق بمدى ذكاء وحصافة خططها أو مؤامراتها على الآخرين كي يبقوا أضعف منها، فالولايات المتحدة بقيت الأقوى بلا منازع لأنها جهزت نفسها بتخطيط مستقبلي يأخذ كل الاحتمالات الممكنة في العالم، وهذا نوع من التّآمر أيضاً أي أن المنهزم يقول أنها مؤامرة والمنتصر يقول أنها تخطيط ذكي، فالولايات المتحدة تدعي أنها اتبعت استراتيجية ذكية ضد الاتحاد السوفيتي بنموذجه الديكتاتوري اللاإنساني، والسوفييت يعتبرونها مؤامرة ماكرة خبيثة ضد نموذجهم الانساني الراقي، وبين النظرتين تقبع الحقيقة أما الفهم المتطرف حول المؤامرة كأنها قوة خفية عظمى تصوغ التّاريخ، فهو فى الواقع مجرد تبريرات للفشل يمكننا الزّعم أن لا دولة فى العالم تعيش مطمئنة أن ليس هناك دولة ما تتآمر عليها هذه للأسف قوانين السوق التي عاش وفقها البشر آلاف السنين0

اختباء كافة الحكام العرب خلف حجة المؤامرة لتبرير استمرار ديكتاتوريتهم هو نوع من الدّجل واللعب بالمصطلحات والواقع فأن يتحجج الحكم السّوري بعد خمس عقود من حكم البعث وأربعة عقود من حكم عائلة الأسد أن المؤامرة هي السّبب فى تأخير تحسن الحالة السورية وضرورات المعركة تفرض تأجيل ما يراه الدّيكتاتور ترف الدّيمقراطية هو محض موقف انتهازي لمشاعر النّاس تجاه قضاياهم الوطنية والقومية المؤامرة بمعنى طمع الجوار أو العالم فى سوريا بدأ منذ 6000 سنة ولن ينتهي خلال 6000 سنة.

تقوم العلاقات الدّولية على أساس المصالح وليس على أساس الأخلاق والقانون أو الدين والطوائف وحكم الأسد ليس خارج هذا النّطاق ولقد أدركت حكومات الغرب والجوار العربي والإقليمي خاصة بعد انتصار التّونسيين والمصريين، أن الشّعوب لو بدأت فلن تتراجع وكل الدول أعادت حساباتها مع بدء تحرك الشّعب السّوري، وتشاورت معاً من خلال مصالحها فمن الطبيعي والحالة هذه، أن تتحرك كل الدّول خلف مصالحها وتتخذ خندقاً تتعامل به مع الثورة السورية وربما كان من سوء حظ سوريا أنها تقع في أهم منطقة فى العالم حيث لم يحدث بعد فلسطين أن تصارعت مصالح الدّول على دولة صغيرة مثل سوريا فمن الواضح أن الاهتمام الدّولي بسوريا يعود لأهميتها الجيوسياسية حيث:

• تقع شمال إسرائيل ربيبة الغرب المدللة، ومصلحة الغرب ببقاء إسرائيل دولة متحاربة مع جوارها لم تنتهي ومصالح إسرائيل تأتي في المقام الأول في السياسة الغربية وكثيراً ماطالب الكيان الصهيونى أمريكا بتخليصه من أقوى ثلاثة جيوش فى المنطقة العربية وهى العراق وسورية ومصر وقد انتهت العراق كدولة وسوريا تنهك قواها الآن ومصر على الطريق.

• قرب سوريا من منابع النّفط والغاز الأغنى فى العالم في منطقة الخليج العربي والعلاقة التاريخية الوثيقة بين شعوب هذه المنطقة.

• النّظام السّوري يمنح الحكم الإيراني قوة مضاعفة بتحالفه معه فهذا التحالف هو بوابة الحكم الإيراني للمنطقة العربية ولحدود لبنان وإسرائيل مما يمنح إيران أوراقاً إضافية في لعبة تكسير الأصابع بين الحكم الإيراني والنظام الغربي السياسي.

• تشترك سوريا فى المشكلة الكردية المعقدة مع تركيا فرغم الاختلاف بين وضع الأكراد في سوريا ووضعهم في تركيا، إلا أن المشكلة الكردية ما تزال عابرة لحدود هذه الدول والحكومات التركية ترى في المشكلة الكردية أهم مشاكلها وتحدياتها خاصة بعد الغزو الأمريكي للعراق حيث لم تحصل حكومة أردوغان على أي ميزات للتحكم في شكل كردستان

العراق والحكم التركي لا يريد تكرار الخطأ في سوريا، فالقضية الكردية يجب أن لا تفلت من سيطرته.

• بعد فشل تأسيس دولة مدنية ديمقراطية لا طائفية فى لبنان، ودمار العراق كوطن موحد للعراقيين، وسيطرة المعسكر الغربي الخليجي علي مصر، وبسبب حاجة السوق الغربي لإسرائيل كدولة دينية، ولدول الخليج كدول ملكية ، فنجاح السوريين في التحرر من الديكتاتورية وبناء بلد ديمقراطي مدني مستقل يشكل خطراً حقيقياً على توازن القوى الدولية.[1]

تكاثر الحديث الإيراني، في الآونة الأخيرة، عن انتصار حققته طهران في سوريا، بل ذهب أحد كبار قادتها وهو رحيم صفوي مستشار المرشد الأعلى خامنئي إلى اعتبار أن حدود بلاده الحقيقية صارت على شواطئ المتوسط عند تخوم الناقورة الفلسطينية، مما يعني ضمناً انضواء العراق وسوريا تحت أجنحة خريطة التمدد تلك.

فهل قادة إيران لاينطقون عن الهوى خاصة أنهم يعنون بدقة حدود جغرافية تمددهم وانتشار قوتهم وسيطرتهم؟ أم إن ذلك لا يعدو كونه

1- الثورة السورية والقوى الدولية ص 61-65

مجرد تقديرات، كي لا نقول تخمينات، بمعطيات ناقصة وغير حقيقية، أو حتى نوعاً من البروبوجندا السياسية اقتضتها ظروف الحرب ومستلزمات التفاوض مع العالم الخارجي؟ بعيداً عن نبرة الاحتفال في الخطاب السياسي الإيراني، ثمة مؤشرات عديدة تؤكد أن القيادة الإيرانية تعتبر نفسها قد انتصرت في سوريا، وتتولد هذه القناعة من جملة من المعطيات استطاعت طهران ترسيخها في الواقع الميداني السوري والشرق الأوسط عموماً ووفق تلك القناعة فإن طهران خلقت واقعاً عسكرياً من الصعب تجاوزه، خاصة بعد أن سيطرت على القلب الإستراتيجي لسوريا الممتد من العاصمة دمشق وحتى الساحل، وتشكل هذه المنطقة بالمعنى الإستراتيجي قلب الشرق الأوسط لأنها على كتلة جغرافية ذات طبيعة جبلية تشرف على القسم الأكبر من الشرق الأوسط، بحيث يصبح لبنان والجزء الحيوي والمأهول من إسرائيل تحت مراقبتها، وحتى بعض أجزاء الجنوب التركي.

إضافة إلى إمكانية عمل كريدور بري يصل العراق عبر ريف حمص الشرقي، الأمر الذي يتيح وجود خريطة متماسكة وصلبة وتتوفر على إمداد لوجستي من طهران حتى صور جنوب لبنان وفي الواقع الجغرافي السوري، تشكل تلك المناطق المشار إليها قلب سوريا، لتحكمها بشبكة خطوط المواصلات بكامل البلاد، ومن ناحية أخرى تشكل الجزء الأكبر

المأهول من سوريا، كما تتمتع بطبيعة جغرافية تسهل التحصن بها من قبل قوات عسكرية منظمة، فضلاً عن إشرافها على مناطق عسكرية داخلية واسعة، وتحويلها بالمعنى العسكري الكلاسيكي إلى مناطق ساقطة حربياً، بالإضافة إلى امتلاك هذه المناطق للمياه، (حوضيْ بردى والعاصي).

وأوجدت إيران خريطة مهشمة هي عبارة عن قطع متناثرة في شمال سوريا وفي جنوبها وشرقها، وهي مناطق إما صارت جزراً معزولة لا تشكل مخاطر حقيقية، وقد يجري قضمها بعد أن يصار إلى إنهاكها بسياسة الحصار والتجويع، وإما هي مخترقة من قبل التنظيمات التي تدعمها طهران فى السر أو تخترقها بطريقة ما.

ولعل الانتصار الأهم بالنسبة لإيران في سوريا يتمثل فى الاختراق الكامل للنظام السياسي السوري نهائيا، وتحويله إلى مجرد كيان إيراني داخلي، مثل أي كيان إداري داخل إيران، حيث تفيد المعلومات -التي لم تعد سرية- بتخصيص حكومة طهران ميزانيةً ثابتة يجري صرفها باسم نظام دمشق، تشمل كل مصروفات تشغيل هذا الكيان بما فيها تصريف الشؤون العادية، ناهيك عن الموازنات الكبيرة للمليشيات المقاتلة، وجيش النظام السوري واحد منها، وكميات الأسلحة والذخائر التي توردها إيران، وطبيعي والحالة كذلك أن يدعي أحد قادة إيران أن سوريا

صارت المحافظة رقم 35 في إيران.

هذا الاختراق الذي حققته طهران، جاء بفضل وجودها العسكري وسيطرتها على الميدان بعد انهيار شبكة سيطرة نظام الأسد على سوريا، إذ بعد عام من الثورة، كانت جميع تشكيلات جيش النظام وأجهزته الأمنية قد تمزقت ووصلت إلى عتبة الانهيار وتجلى ذلك في صيف 2012 عندما بدأت كتائب الثورة تطبق على دمشق، حينها جرت تنحية قيادات النظام عن المشهد وتحويلها إلى مجرد ديكور للتصوير في نهاية المعارك، وأشرفت إيران بنفسها على ترتيب المشهد الميداني في سوريا تخطيطاً وتنفيذاً، حتى إن بعض القطاعات صار محرماً دخولها أو الوجود بها لأي سوري كان بما في ذلك قوات الأسد نفسها، حتى إن حسن نصر الله نفسه أقر بهذه الواقعة بقوله إننا لو لم نتدخل لسقطت دمشق في أسبوع، وكذا تصريحات إيران بأن الأسد باق لأنها أرادت ذلك.

استطاعت إيران ترتيب مشهد آني بقصد توظيفه داخلياً وخارجياً، لكن هذا المشهد يرتكز على معطيات متحركة ولم تستقر بعد، وبالتالي لا يمكن البناء عليه أو أخذه على محمل الجد بالطبع التدخل الإيراني سبق ذلك، وكان موجوداً في كل مراحل الثورة، ذلك أن إيران وبعد شهور قليلة من الثورة بدأت تدرب أعداداً كبيرة من أنصار النظام في معسكرات

إيرانية، ثم أشرفت على إنشاء ما يسمى الجيش الوطني كشكل من أشكال الحرس الثوري (الباسيج).

غير أن هذه الإجراءات لم تحقق المطلوب ولم يتم القضاء على الثورة، مما دفعها إلى النزول بكامل تجهيزاتها العسكرية إلى الميدان، وتولت مسؤولية القطاعات التي تراها أكثر إستراتيجية لحماية النظام، وكانت الخطة في البداية تقضي بوقف انهيار خطوط حماية القلب في دمشق وتثبيت الثوار في مناطقهم كمرحلة أولى، خاصة في دمشق، ثم العمل على تحقيق اختراقات إستراتيجية في مناطق معينة.

وجرى التركيز على الطرق الإستراتيجية وطرق الإمداد بين الساحل ودمشق، وربط مناطق الجسور بين لبنان وسوريا، ونجحت هذه الخطة بسبب سهولة قطع طرق إمداد الثوار، وبالنظر لوجود مناطق لا تعتبر بيئة حاضنة للثوار، إضافة إلى قربها من مناطق حزب الله.

وثمة مؤشر آخر تضيفه إيران إلى حزمة مؤشرات نجاحها في الحيز السوري، وهو واقعة اختراقها للنظام الإقليمي العربي وتهشيمه، بعد إخراج العراق وسوريا من إطاره الجغرافي والبشري، خاصة وأن حربها الطائفية قامت على استبعاد السنة العرب في هذين البلدين، أو في أقل الأحوال تهميشهم وتحويلهم إلى عنصر غير فاعل ومؤثر في مسار الأحداث ومآلاتها النهائية في ظل إعادة صياغة توجهات هذين البلدين

بما يتناسب مع خدمة الأهداف الإستراتيجية الإيرانية الكبرى في المنطقة، أو حتى في إطار تفاعلها مع البيئة الدولية بصراعاتها وتأتي أهمية هذا المتغير فى نظر قادة إيران من كونه يجلعهم طرفاً مقرراً فيما تبقى من النظام الإقليمي العربي، وتمنحهم فرصة إعادة صياغة النظام الإقليمي برمته وتحديد مواقع أطرافه، وهو أمر يعتبر من الأهداف الإستراتيجية الكبرى لطهران، وطالما داعب خيال قادتها.

غير أن الانتصار وفق التصور الإيراني يأتى من حقيقة فرض طهران على العرب الداعمين للثورة السورية خاصة عرب الخليج واقعاً صلباً لا يمكن تجاوزه وفق المعطيات الراهنة، بعد أن طورت موقف عملياتها بحيث أصبحت الأطراف الداعمة أمام تحد جديد يفرض عليها الالتفات لأمنها الداخلي، إذ تعتقد إيران أنها أنجزت صناعة الطوق الذي يحاصر دول الخليج من جهة سوريا والعراق وهي على وشك إغلاقه نهائياً من جهة اليمن مما يضع هذه البلدان أمام واقع مختلف ومن المؤكد أن الواقع ليس بالصورة التي تحاول إيران إظهارها، ثمة جزئية صحيحة في سياقه وهي أن إيران استطاعت ترتيب مشهد آني يظهر هذه الصورة، بقصد توظيفه داخليا وخارجيا، لكن هذا المشهد يرتكز على معطيات متحركة ولم تستقر بعد، وبالتالي لا يمكن البناء عليه أو أخذه على محمل الجد، لما ينطوي عليه من محاولات تضليل واضحة، وهو

في أحسن الأحوال لا يعدو كونه محاولة لقطف ثمار نصر لم يتم بعد. وتدرك الأطراف المقصودة بالرسائل الإيرانية مدى الوهن والاستنزاف الذي باتت عليه إيران هي ومن تؤيده بالإقليم، بعد أن صرفوا الجزء الأكبر من احتياطاتهم وعلى كافة الصعد في معركة يستحيل النصر فيها.

المقدر أن تؤدي سياسات التدخل الإيرانية التي تفوق طاقتها الحقيقية إلى إضعاف سلطتها المركزية وانفلات الأمور بطريقة لن يعود بالإمكان ضبطها، مثل ما حدث للاتحاد السوفييتي الذي انتهى بالتفكك ومن المؤكد أيضاً أن قادة إيران الذين تحاصرهم المشاكل من أكثر من اتجاه يدركون أن جزءاً من مشهد البروبوجندا الذي صنعوه إنما يعبر عن رغبه لديهم أكثر من تعيينه لواقع إستراتيجي إذ لم يعد خافياً حقيقة الإستراتيجيات المضادة التي تتبناها قوى الغرب في الساحة السورية التي تريد لإيران مزيداً من الانزلاق في الوحل السوري ليتم استنزاف طاقاتها فيما يمكن تسميته بالورطة الإستراتيجية السورية.

وتصل طموحات الغرب وحتى تقديراته في إنهاك إيران في المقلب السوري إلى ما هو أبعد من مجرد استنزاف آني، أي إلى حد انعكاس ذلك الاستنزاف على الاستقرار الداخلي الإيراني وإمكانية وصوله حد تفكيك الجغرافية الإيرانية نفسها خاصة أن إيران تنطوي على فسيفساء عرقية وحالة انقسام اجتماعي يجري ضبطها حتى اللحظة بفضل سياسة

مركزية صارمة .

وتستعجل إيران الإعلان عن انتصارات لم تنجزها بعد فما زال الثوار في سوريا ورغم ما يواجهونه يقلبون المعادلات كل يوم لدرجة تجعل الأرض متحركة تحت أقدام إيران وحلفائها وتشير التقديرات إلى أن طهران يهمها التهليل الإعلامي لانتصارات آنية، وبعدها ستذهب لعرض بضائعها للتفاوض على هذا الواقع، أما التدخل العسكري الذي وصل ذروته فسيتوقف عند الحدود التي بلغتها قوات حلفائها، غربي أوتوستراد دمشق- حمص، بانتظار ما ستؤول إليه المتغيرات .

obeikandl.com